تنيلًا في انقوش على يد داوندوز الكردي الذي نهب دير الربّان هرمزد سنة ١٨٣١

فاين حالنا الحاضرة من حال اولئك الاسلاف القدماء الذين زيّنوا الكنيسة الشرقيّة بتصانيفهم وتآليفهم وعباداتهم ومساعيهم مع كونهم قلّما اسدلَ الدهر عليهم ستر السلم والرفاه فلننهض العزائم ولنرتق ما فتقهُ الدهر من بُردة حضارة وتدين آبائنا ولا نتقهقر بل لنسعَ الى ما قدّام ولنرقِّ حالة الخاصّة والعامّة باصلاح شأن المدارس الخصوصيّة والعموميّة وتنشيط الاكليروس ورفع منار الفضيلة والعلم والآداب لغاية تمجيد اسم الله القدوس وتعزيز الديانة المسيحيّة وانتشار الكثلكة متكلين على ايده تعالى العاوي وهو السميع العليم

قيس الماروني

او اقدم تاريخ للكتبة الموارنة

للاب مغربي لامنس اليسوعي

من جملة ما أثبتنا في مقالتنا التي استهضنا بها الهمَم على درس تاريخنا (المشرق ١ : ٢٦١) أنّنا نودّ لو اهتدى اصحاب الجدّ والتنقيب الى وجود التصانيف والكتابات المخطوطة التي استشهد بها الدويهيّ في تاريخهِ وكان سبقهُ ابن القلاعيّ فأخذ عنها فِقَرات ادرجها في تآليفهِ. بَيد انّ عامل الخوف لا يزال يتنازعنا فيخال لنا انّ كثيرًا من هذه الكنوز تولّت عليها ايدي الضَّياع

هذا وبينا كنّا نتصفّح احد مجلّدات المجلّة الاسيويّة الالمانيّة (١ اذ عثرنا على مقاطيع سريانيّة من تاريخ لبعض كَتَبة الموارنة نُعِدُّهُ كأقدم أثر لهذه الطائفة الشهيرة. وهذه القطع عبارة عن اخبار خمس سنوات تبتدئ من سنة ٩٧٠ للاسكندر الى سنة ٩٧٥ (٦٥٨ ـ ٦٦٣ للمسيح) وهي تتضمّن قسمًا من الحوادث التي جرت في ايّام معاوية اوّل خلفاء بني أميّة

امّا الكتاب التي نُقلت عنهُ فهو من الجاميع السريانيّة المحفوظة في خزانة لندرة

---

١) المجلّد ٢٩ الصفحة ٨٢ (ZDMG)

وقد وُسم فيها بالعـدد الآتي (Cod. Add. 17121-Wrights'Cat. p. 14). وهذه النبذة مع قصرها تنبئنا بما كان لبقيّة هذا التـاريخ المفقود من الخطارة وعظم الشأن. ولا شكَّ في انَّ الاصل كان مشبع الاخبار كتاريخ تاوُفانس يذكر الوقائع الدينيَّة والامور الدنيويَّة معًا. والدليل على ذلك انَّ القطع الباقية تشتمل على تفاصيل ولطائف مختلفة لا نجد لها شبهًا في غيرها من تصانيف ذلك العصر

ولكن مَن هو يا تُرى مؤلِّف هذا التاريخ وفي ايِّ عهد عاش وما كان وطنـه فتلك اسئلة كأني بالقرَّاء يعرضونها علينا وينتظرون بفروغ الصبر جوابًا عنها

نقول انَّ مؤلِّف هذا التاريخ ليس لاسمهِ من أثر في النُّبَذ الباقية في المجموع المارّ ذكرهُ وذلك بلا مراء. ممَّا يؤسف لهُ. ولكن هلمَّ نُعمِل رويَّة الفكر ونعتبر حالة الكتاب ومضمون الفصول الواردة الينا فلعلَّنا نستدرك الخلل ونقف على صاحب هذا التأليف

واوَّل ما يمكننا تقريرهُ انَّ واضع هذا التأليف من قدماء الكَتَبة. والبرهان على ذلك انَّ الكتاب الخطّي الذي جاءت فيهِ هذه اللُّمَع التاريخيَّة قديم العهد تشهد عليهِ صورة كتابتهِ العتيقة حتى انَّ العلاَّمة رَيت (Wright) الذي وصف بثلاث مجلَّدات الكتب السريانيَّة المصانة في المتحف البريطاني ذهب الى ان الكتاب خُطَّ في القرن الثامن او التاسع. ولا يبعد هذا القول من بعض الغلوّ كما سيأتي

وزاد المستشرق الشهير نُلدك انَّ صاحب هذه المقاطيع التي نحن في صددها كان راهبًا ولم يُورد لقولهِ بيِّنة

امَّا وطن الكاتب فسوريَّة لانَّ مدار كل اخبارهِ على امور لا تتجاوز قطر الشام وفلسطين. ولا بدع انَّ المؤلِّف كان مارونيًّا. والدليل على ذلك انَّهُ يقابل بين اليعاقبة وانصار مار مارون « حَمَه مَمَه مَمَّه » فيصف الاوَّلين بنعوتٍ تُشعر باستيائهِ منهم ونفورهِ عن تعاليمهم ويظهر ميلهُ الى الموارنة ويرتاح الى تعـاليمهم. وهو مع ذلك كاتبٌ ثقة صادقٌ يظهر صدق قولهِ اذا قوبلت عدَّة امور اوردها مع ما كتبهُ غيرهُ من المؤرِّخين المعاصرين لهُ

وألطف ما جاء في هذه المقاطيع التي صبرت على فتك الدهور قصَّة جدالٍ عنيف جرى في سنة ٩٧٠ لليونان (٦٥٨ م) في مجلس الخليفة معاوية بين اليعاقبـة والموارنة وهذا نصُّهُ مع تعريبهِ:

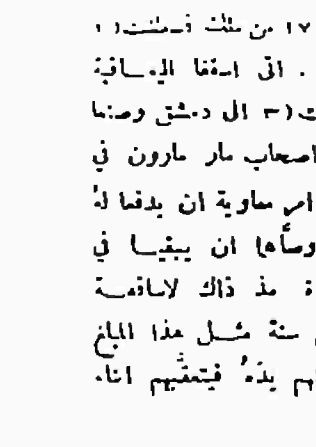

وفي سنة ٩٧٠ وفي ١٧ من ملك قسطنت (١ في شهر حزيران ... الى اسقفا اليعاقبة تاودروس (٢ وسبرخت (٣ الى دمشق وصنما جدالاً امام معاوية مع اصحاب مار مارون في امر الايمان . ولما غلبا امر معاوية ان يدفعا له عشرين الف دينار ووصاها ان يبقيا في الهدوء . وجرت العادة منذ ذاك لاساقفة اليعاقبة ان يدفعوا كل سنة مثل هذا المبلغ لمعاوية لئلا يكفّ عنهم يدهُ فيتعقبهم اثناء الكنيسة (٤

ولا حاجة هنا لاثبات بقيّة الاخبار التي تحتوي عليها هذه القطع التاريخيّة . ومن احبَّ الاطلاع عليها فليطلبها في المجلّة المذكورة . وما اوردناهُ آنفًا دليل على اهميّة هذا التاريخ رداع لاسفنا على فقد الكتاب وجهلنا لاسم مؤلّفهِ

وهاك ما نعرضهُ لحلّ المشكل الاخير اعني تعريف صاحب التاريخ المنوَّه عنهُ . قد جاء في كتاب للمسعودي اسمهُ (كتاب التنبيه والاشراف طُبع حديثًا في ليدن ونُقل الى الفرنسيّة في السنة الماضية فقرةٌ عن قيس الماروني هذا حرفها (في الصفحة ١٥٣) :

« ولهُ (اي قيس) كتاب حسن في التاريخ وابتداء الخليقة والانبياء والكتب والمدن والامم وملوك الروم وغيرهم واخبارهم انتهى بتصنيفهِ الى خلافة المكتفي . ولم ارَ للمارونيّة في هذا المعنى كتابًا مؤلّفًا غيرهُ »

---

١) هو قنسطنت الثاني الذي ملك من سنة ٦٤١ الى ٦٦٨

٢) نظنّ ان تاودورس هذا انّما هو بطربرك اليعاقبة الذي ذكره ابن العبري في تاريخهِ الكنسيّ الجزء الاوّل الصفحة ٢٧٩ (ed. Lamy) ولم يدعهُ المؤلف بطربركًا لانّهُ من البدعة اليعقوبيّة

٣) وقد صُحّف اسمهُ في الاصل بسبخوت والصواب ما ذكرنا . والمرجّح ان سبوخت هذا هو اسقف قنسرين الذي ورد ذكرهُ في التاريخ نفسهِ (ص ٢٧٦)

٤) اي الكنيسة الحقيقيّة التي ينتسب اليها المؤلف . وفي هذه النبذة شاهد جليل على ان الموارنة لم يقبلوا قط اضاليل اليعاقبة

(قلنا) انّ قول المسعودي اجال بفكرنا انّهُ من المحتمل ان يكون قيس المذكور صاحب التاريخ السريانيّ الذي وصفناهُ. والحقُّ يقال انّ القطع المنشورة منهُ توافق كل الموافقة ما كتبهُ المسعودي عن قيس الماروني

وكأني بمعترض يحتجُّ عليَّ بحجّتين فيقول. اولًا: كيف يمكن ان يكون قيس الماروني صاحب هذا التاريخ وقيس عاش في عهد المكتفي (١ كما يؤخذ من قول المسعوديّ. امّا الكتاب المخطوط الذي وردت فيهِ المقاطيع السريانيّة فهو يرتقي على زعم رَيت الى القرن الثامن او التاسع. ويقول المعترض ثانيًا انّ المسعوديّ يذكر تاريخًا عربيًا وهذه الفقرات انّما هي سريانيّة

نجيب على الاعتراض الاول: انّ الكتاب الذي وصفهُ رَيت ليس بمؤرَّخ وقد بنى زعمهُ على صورة خطّهِ وورقهِ والحكم على ذلك ليس بقطعيّ وانّما هو حدسٌ ليس إلّا. وزد على ذلك انّ المكتفي تولّى الخلافة في غرّة القرن العاشر فيكون حكم رَيت قريبًا الى الصواب

امّا الاعتراض الثاني فجوابنا عليهِ انّ المسعوديّ لا يقول انّ قيسًا هذا كتب بالعربيّة ولعلّهُ عرف تاريخهُ ممّا وُصف لهُ او من ترجمةٍ عربيّة كان يتداولها نصارى القرن العاشر

وما يزيد في ترجيح رأينا بان قيسًا هذا هو صاحب التاريخ السرياني السابق ذكرهُ قول المسعوديّ انّهُ لم يعرف للموارنة في التاريخ غير كتابٍ واحد والمسعوديّ رجلٌ كثير الاطّلاع فلو كان لبعض الموارنة تاريخ مشهور لما فاتهُ الامر لاسيما انّهُ كان قريب العهد من قيس الماروني اذ عاش بعدهُ بقليل

فنرى اذن انّ القطع التاريخيّة التي وصفناها هي لقيس المذكور ونبدي الامل بان يبحث على بقيّتها الموارنة فلعلّهم يحيون بذلك اثرًا جليلًا يشهد لطائفتهم بالفضل العميم بعد ان طمستهُ الايّام

(١ بويع للمكتفي في ربيع الآخر من سنة ٢٨٩ هـ (٩٠١ للمسيح) وتوفي في ذي القعدة سنة ٢٩٥ (٩٠٧)